

مقال: بين ابن حزم وابن خلدون

المصدر: مجلة الفكر

بقلم: محمد محفوظ

رقم العدد: 4

تاريخ الإصدار: 1 يناير 1963

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

<https://www.turkmani.com>



بين ابن حزم وابن خلدون

بقلم : محمد محفوظ

كان ابن حزم اول عالم نقد اسفار التوراة والاناجيل (ما يسمى بالعهد القديم والعهد الجديد) نقدا علميا عقليا قبل ان تظهر بواكير هذه البحوث باوربا في القرن السابع عشر على يد ريشار سيمون Richard Simon (1678) وعلى يد استروك Astruc في القرن 18 م الذي كانت لدراسته فضيلة السبق في الكشف عن المصادر الاولى لاسفار التوراة الخمسة، ثم تلاهما يوليوس ولهزن Julius Wellhausen الذي استفاد من بحوث سابقه، وكانت كتاباته وبحوثه مرجعا للعلماء من بعده.

وقد تفتن لما امتاز به منهج ابن حزم عن بقية مناهج علماء الاسلام في مجادلة اهل الكتاب الشيخ عبد الله الترجمان (1) في كتابه "تحفة الاريب، في الرد على اهل الصليب (2)" اذ يقول : "... وجدت تصانيف علمائنا الاسلاميين - رضي الله عنهم - محتوية على ما لا مزيد عليه، الا انهم - رحمهم الله - قد سلكوا في معظم احتجاجهم على اهل الكتاب من النصارى واليهود مسالك مقتضيات المعقول والمنقول، غير انه لم يرد عليهم بمقتضى المنقول الا في النادر من المسائل". (3)

(1) اصله من مدينة ميورقة، وكان قسيسا بها، قدم الى تونس في زمن ابي العباس احمد الحفصي وعمره 35 سنة، فأسلم، واولاه احمد الحفصي قيادة البحر بالديوان، وبعد اتقانه للعربية صار يترجم ما يرد من الوثائق بلسان الجنويين والفرنسيين وغيرهم، وفي زمن السلطان ابي فارس عبد العزيز بن ابي العباس احمد الحفصي اضاف اليه ولاية دار المختص.

(2) الفه بتونس سنة 823 هـ في زمن ابي فارس عبد العزيز الحفصي، وطبع بمطبعة التمدن بمصر سنة 1904 م، ورايت نسخة خطية من الكتاب عنوانها : "تحفة الاريب"

(3) خطبة "عنوان الاريب" ص 2.

والسبب - على ما يبدو - في ظهور هذا الاتجاه العلمي النقدي في وقت مبكر بالاندلس تركيب المجتمع الاندلسي، المتألف من عناصر اسلامية ومسيحية، تأثرت هذه الاخيرة بحضارة المسلمين، لكنها بقيت متمسكة بدينها، ونشأ عن المجاورة والاحتكاك الجدل والنقاش في مسائل العقائد مما دعا الى ان ينبرى علماء الفريقين للرد على بعضهما بعض .

وأتى من بعد ابن حزم عالم اندلسي آخر هو احمد بن عبد الصمد بن ابي عبيدة - بفتح العين - الانصاري الخزرجي، من تلامذة القاضي ابي بكر بن العربي، المتوفى بفاس سنة 582 هـ، 1187 م، الف كتابا في الرد على بعض القسيسين بطليطلة سماه "مقامع الصلبان في الرد على عبدة الأوثان" (4) كان متأثرا فيه بابن حزم من ناحية منهجه النقدي.

ومنهج ابن حزم في نقده يتمثل في معارضة النصوص بعضها ببعض، وبيان ما فيها من اضطراب وتناقض واختلاف، ورد الروايات التاريخية التي تصادم معطيات العلوم - على ما وصلت اليه في عصره - من هندسة وجغرافيا وعلم المواليد الثلاثة (الحيوان والنبات والمعادن)، وبالجملة كل ما يتعارض مع القوانين القيسية الثابتة المطردة التي يسير العالم والمجتمع الانساني حسب مقتضياتها، يكون عند ابن حزم كذبا ومحالا من باب ما يتسلى به العجائز من الخرافات والاسمار عند غزلهن للصوف .

أمثلة من نقده : بعد ان حكى ما ورد في سفر التكوين (الاصحاح 15، الآية 13) من تنبؤ ابراهيم ببقاء اليهود لمدة 400 سنة بمصر، ووصف جامع اسفار التوراة باوصاف جرى بها قلمه كثيرا فيها اقداع امسكنا عن ذكرها، قال : "تكلف املاء ما لم يقم بحفظه جاهل مع ذلك مظلم الجهل بالهيئة وصفة الارض والحساب". (5)

وبعد ان نقل انه كان يوضع في قصر سليمان - ع - كل يوم مائة مائة

(4) هذا هو عنوان الكتاب في النسخة الموجودة بالمكتبة الاحمدية بتونس عدد 2063 "وفي الديباج" ص 51 "مقامع هامات الصلبان، وروائع رياض الايمان"، وفي "نيل الابتهاج" ص 59 "مقامع الصلبان"، وفي "تكملة الصلة" لابن الأبار، ط. مصر 85/1 "مقامع الصلبان، ومراتع رياض الايمان".

(5) الفصل في الملل والنحل، ط. مصر 1317 هـ، 128/1 .

ذهب على كل مائة مائة صفحة ذهب، وثلاثمائة طبق ذهب، على كل طبق ثلاثمائة كاس ذهب، قال : ”فاعجبوا لهذه الكذبات الباردة، واعلموا ان الذي عملها كان ثقيل الذهن في الحساب، مقصرا في علم المساحة، لانه لا يمكن أن يكون قطر دائرة الصفحة أقل من شبر، وان لم تكن كذلك فهي صحيفة لا صفحة طعام ملك، فوجب ضرورة ان تكون مساحة كل مائة من تلك الموائد عشرة اشبار في مثلها لأقل، سوى حاشيتها وارجلها.

واعلموا ان مائة من ذهب هذه صفتها لا يمكن البتة ان يحركها الا فيل، لان الذهب ارزن الاجسام واثقلها. ولا يمكن البتة ان يكون في كل مائة من تلك الموائد أقل من ثلاثة آلاف رطل ذهب، فمن يرفعها ومن يضعها ومن يغسلها ومن يمسحها ومن يديرها؟! فهذا الذهب كله، وذا الاطباق من اين؟!“ (6).

ومن الطريف ان المعجزات عند ابن حزم لاتصادم النواميس الثابتة في الكون، فاذا صادمتها دخلت في حد الكذب ؛ قال : - عقب الكلام السابق عن معجزات سليمان الواردة في القرآن من اتيانه ملكا لا ينبغي لاحد من بعده، وتسخير الريح له ، وعلمه بمنطق الطير الخ... ”وبين الامرين فرق واضح، وهو ان الذي ذكرت مما نصدق به نحن، هو من المعجزات التي تأتي بمثلها الانبياء - ع - داخل كله تحت الممكن في بنية العالم، والذي ذكروه هو خارج عن هذا الباب داخل في حد الكذب، والامتناع في بنية العالم (7)“. سقت هذه المقتبسات من كلام ابن حزم ، وهي قليل من كثير، للتدليل على منهجه في النقد، واعطاء صورة واضحة عن غزارة تفكيره وقوة عقله، وانه كان اول عالم عربي وضع اسسا بينة لنقد الرواية التاريخية مستعينا بقوانين مختلف العلوم وقواعدها لبيان ما في هذه الروايات من زيف وبهرج، وانه يتعين تنفيذها ورفضها عند مصادمتها للقوانين العلمية اليقينية الثابتة التي لا يرقى اليها شك البتة. وجاء ابن خلدون من بعد ابن حزم باكثر من ثلاثة قرون واستفاد من كتاباته ومنهجه النقدي، ولكنه اهمل الاشارة الى الاستفادة من كتاب ابن حزم ”الفصل“ جريا على عاداته في عدم ذكر المصادر التي يستقي منها. ويبدو تفوق ابن خلدون في عقلية الفلسفية القديرة على التجريد والتعميم واستنباط القوانين والقواعد العامة الصالحة لنقد الرواية التاريخية،

(6) المصدر السالف 219/1 - 220 .

(7) المصدر السالف 220/1

غير قاصر نقده على بعض المأثورات التاريخية الموثقة في اسفار العهدين القديم والجديد¹.

هذا هو الفرق بينه وبين ابن حزم، ولكن لا ينكر فضل المتقدم، وما كان له من جهد في تمهيد الطريق، والقاء الاضواء الكاشفة على مسالك وشعب كانت مهجورة من قبل.

ان النغمة التي سمعنا ترديدها من ابن حزم من مثل قوله : "داخل كله تحت بنية العالم، داخل في جو الكذب والامتناع في بنية العالم الخ..." والاستناد الى نتائج العلوم المختلفة لنقد الرواية التاريخية نجد شبيهه في "مقدمة" ابن خلدون.

وهناك فارق في الاسلوب بين ابن حزم وابن خلدون، ومرده الى تباين مزاجهما الشخصي، فابن حزم عنيف في نقده، طويل اللسان سليطه يصل به أحيانا الى البذاءة والاقذاع، وابن خلدون ريف الطبع هاديء المزاج ينقد في اتزان، الحججة تتبعها الحججة، والشبهة ينقضها البرهان، بدون استعانة بمؤثرات عاطفية من سخرية وتهكم واقذاع كما هو شأن ابن حزم.

مقارنة بين ابن حزم وابن خلدون

عندما تحدث ابن خلدون في مقدمة "المقدمة" عن "فضل علم التاريخ" وتحقيق مذاهبه، والالتماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام، وذكر شيء من اسبابها "بين" ان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل بدون تحكيم لاصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني، وبدون قياس الغائب منها على الشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العنور، ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق". وهذا الاعتماد على مجرد النقل ناشيء عن عدم معرفة القوانين الاجتماعية التي تتحكم في سير المجتمعات قد أوقع المؤرخين وايممة النقل في الاغلاط والاوهام "لاسيما في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات، اذ هي مظنة الكذب، ومطية الهذر، ولا بد من ردها الى الاصول، وعرضها على القواعد".

ثم ذكر ما نقله المسعودي (8) وكثير من المؤرخين عن جيوش بني اسرائيل، وان موسى - ع - احصاهم في التيه فكانوا ستمائة الف أو يزيدون،

(8) التنبيه والاشراف، ط. الصاوي، ص 170، ومروج الذهب، ط. محي الدين عبد الحميد، 49/1.

بعد ان أجاز من يطيق حمل السلاح من ابن عشرين فما فوقها. (9)
وحجج ابن خلدون في تنفيذ هذه الحكاية بتلخيص فيما يلي :

1) الذهول عن معرفة مساحة مصر والشام، وضيقتها عن ابواء هذا العدد من الجيوش.

2) لكل دولة من الدول "حصّة من الحامية تتسع لها، وتقوم بوظائفها، وتضيق عما فوقها ؛ تشهد بذلك العوائد المعروفة، والاحوال المألوفة".

3) مثل هذا العدد من الجيوش "يبعد ان يقع بينها زحف او قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين او ثلاث او أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان، او تكون غلبة احد الصفيين، وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر، فالحاضر يشهد لذلك، والماضي أشبه من الآتي بالماء بالماء".

4) ان "ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير... ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه".

5) لو "بلغ بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم، وانفسح مدى دولتهم، فان العملات والممالك على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها...".

6) ان بني موسى واسرائيل اربعة ابناء، والمدة بينهما - على ما نقله المسعودي - اذ قال : دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط واولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا ؛ وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى -ع- الى التيه مائتين وعشرين وسنة (10)... ويبعد ان يتشعب النسل في اربعة اجيال الى مثل هذا العدد..."

(9) وانظر : سفر الخروج 12، 37 ؛ وسفر العدد، 1، 45-46 ؛ وهذا العدد الضخم محل رد واخذ وتأويل بين المؤرخين والشراح، انظر مثلا:

Daniel - Rops , histoire sainte , le peuple de la Bible , p 110

ومحمد عزة دروزة : تاريخ بني اسرائيل، ص 45.

(10) هذا قريب من نص التوراة السبعينية، وعلى هذه اعتمد المؤرخون، انظر القرافي : الاجوبة الفاخرة، ص 119، وفي التوراة المعتمدة عند اهل الكتابين انهم لبثوا بمصر 430 سنة، وانتهى ابن حزم بعد نقده لهذه الرواية انهم لم يقيموا بمصر الا 417 سنة.

ثم ذكر ان الحديث عن احصاء الجيوش والضرائب ونفقات المترفين يصاحبها الغلو في التقدير، وعله ذلك عنده "ولوع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان، والغفلة على المتعقب والمنتقد، حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد، ولا يطالبها في الخير بتوسط ولا عدالة، ولا يرجعها الى بحث وتفتيش..." تناول ابن حزم هذا الموضوع نفسه في "الفصل" (11)، وحججه في الرد تلخص فيما يلي :

(1) بعد ذكر حدود صحراء سيناء والدول المجاورة لها، والتلميح الى تاريخ صدامهم مع بني اسرائيل، ومساحة دولة بني اسرائيل من فلسطين والاردن، عقب على ذلك بقوله : "فاعجبوا لهذا الكذب المفضوح، وهذا المحال الممتنع، ان تكون المسافة المذكورة تقسم ارضها على عدد يكون ابناء العشرين منهم فصاعدا خاصة ازيد من ستمائة الف، فأين من دون العشرين؟! واين النساء!؟" (لاحظ وجه الشبه بين ما ذكره ابن خلدون، واعتماد كل منهما على ما عرف في الجغرافيا والتاريخ من ضيق مساحة دولة بني اسرائيل عن ايواء هذا العدد).

(2) ثم نقل خلاصة ماورد في سفر العدد ويوشع من توزيع الاردن وفلسطين بين الاسباط، وبين ما في عدد رجال كل سبط من الاسباط من غلو وكذب ؛ وان الامر في ولد دان افحش من سائر ما في ولد اخوته، ووضح اسباب ذلك، الى ان ختم هذه الفقرة بقوله : "هذا المحال الممتنع الذي لم يكن قط في العالم على حسب بنيته وترتيبه..."

(3) ثم لاحظ ان رقم ستمائة ألف وثلاثة آلاف رجل لا يتماشى مع قانون تزايد السكان، وذكر العوائق الخارجية التي تحول دون بلوغ هذا العدد فكان اكثر دقة وعمقا من ابن خلدون الذي لمح في ايجاز الى استحالة بلوغ بني اسرائيل مثل هذا العدد في مدة مائتين وعشرين سنة وبهذا يكون ابن حزم سابقا لابن خلدون ومالتس (12) في الكشف عن قوانين تزايد السكان "فيا للناس كيف يمكن أن يتناسل من ولادة واحد وخمسين رجلا فقط في مدة مائتي عام وسبعة عشر عاما فقط ازيد من الف انسان!؟"

(11) من ص 165 الى ص 177.

(12) يحسن الرجوع الى ما كتبه الدكتور علي عبد الواحد وافي في مقدمة "المقدمة" ص 126، تعليق (4).

هذا غاية المحال الممتنع، لانه نص في توراتهم انه انتسل منهم ستمائة الف وثلاثة آلاف رجل، كلهم لم يعد فيهم ابن اقل من عشرين سنة، ولعل من دون العشرين عاما منهم يقاربون هذا العدد، ثم النساء، ولعلهن نحو هذا العدد وقد علم كل من يميز من الرجال والنساء ان الكثرة الخارجة من الاولاد لم توجد في العالم لصعوبة الامر في تربية اطفال الناس، ولكون الاسقاط في الحوامل، ولابطاء حمل المرأة بين بطن وبطن، ولكثرة الموت في الاطفال؛ فهذه أربع عوارض قواطع دون الكثرة الخارجية في الاولاد للناس". وذكر ان كثرة النسل لا توجد الا في القليل النادر عند الملوك وذوي اليسار، واما من لا يجد الا الكفاف وفوقه مما لا يبلغ الاكثار من الوفرة، فلا يمكن ان يتكاثر فيهم النسل، وتخلص بعد ذلك الى ان هذا العدد يستحيل وجوده في بني اسرائيل لان ظروف معاشهم وحالتهم الاقتصادية تحول دون تكاثر النسل تكاثرا مفرطا لانهم "كانوا في حياة يوسف - ع - في كفاف من العيش اصحاب غنم فقط، ولم يكونوا في يسار فائض، ثم كانوا بعد موت يوسف واخوته في فاقة عظيمة، وعذاب ونصب، وسخرة متصلة، وذل راتب، وبلاء دائم، وتعب زاهق يكاد يقطع عن الشعب، فكيف عن الاتساع في العيال، والاشرف في الاستكثار من الولد؟!".

وختم حججه بما لا يخلو - على عادته - من تنكيت وسخرية لاذعة "... ذكر في توراتهم أنهم كانوا كلهم يسخرون في عمل الطوب؛ وتالله ستمائة الف طواب لكثير جدا!..."

وامتاز ابن خلدون عن ابن حزم في تفنيد الرواية باستناده الى امور نفسية وسياسية وتاريخية (التحويل في احصاء الاموال والجيوش، الخ لكل دولة حصّة من الحامية الخ...)، ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير الخ...)، ولعل مرد ذلك الى ان ابن خلدون مارس السياسة عمليا، وبلا خيرها ومرها، وتكونت له من مشاهداته وانطباعاته تجارب خصبة أمدهت بمعين لا ينضب عندما دون "مقدمته" الذائعة الخالدة، وابن حزم لم تساعده ظروف حياته على اكتساب تجارب سياسية في مثل خصوبة وثراء تجارب ابن خلدون.

محمد محفوظ